بسم الله الرحمن الرحيم

معالم الأسرة الصالحة (المحاضرة 5)

الزمان: 14/12/2013

المكان: طهران ـ بقعة الشيخ عبدالله الطرشتي

ألقى سماحة الشيخ بناهيان في العشرة الثالثة من المحرّم وفي بقعة الشيخ الطرشتي خمس محاضرات تحت عنوان «معالم الأسرة الصالحة» فإليكم أهمّ المقاطع من محاضرته الخامسة:

لا يفكّر بعض الناس بالهدف من حياتهم ولا يفتّشون إلا عن احتياجاتهم ولذائذهم

إنّ كان الإنسان يعاني في حياته من «نواقص وعقد نفسانيّة»، فهو عادة لا يسأل عن الهدف من حياته، وإنّما يفتش عن احتياجاته ولذائذه وحسب دون أن يفكّر بالهدف من حياته. أمّا إذا أعطى اللّه الإنسان «السّكينة»، فهو يبدأ يفكّر شيئا فشيئا ويسأل نفسه أن: لماذا أعيش وما الهدف من حياتي؟! وحتى قد يسأل نفسه: لماذا يجب أن ألتذّ وأتمتّع وما الداعي إلى ذلك؟ طبعا، النزهة هي غايةٌ بحدّ ذاتها لذوي النفوس الضعيفة، ولكن بشكل عام بعد ما يتمتّع الناس بمختلف اللذات ويشبعون منها نوعا ما، يسألون أنفسهم أن: «لماذا وبأيّ حبّ نتمتّع في حياتنا؟» فمثل هذا الإنسان إن لم يجد هدفا أعلى، سيجد هذه اللذّات تافهة بلا قيمة. إن انشغل الناس دائما بمقارنة أنفسهم مع غيرهم، وأخذوا على أنفسهم أن لا يسبقهم الآخرون في إمكانات حياتهم وكانوا ينظرون إلى نواقصهم دائما وظنّوا أن حياة جارهم أفضل من حياتهم، فمثل هؤلاء لن يصلوا إلى التفكير في هدف الحياة أبدا. أما إن ترفّع الإنسان عن هذه المقارنات واطمأنّ قلبه، يواجه هذا السؤال بجدّ، وهو: «لماذا أعيش؟» يعني يبدأ يفكّر في الهدف من حياته بكلّ عمق.

تعطي «الصلاة» و «الشكر» السكينة للإنسان وتمنحه فرصة التفكير في هدف الحياة

لابدّ للإنسان أن يواصل حياته بهدف وحبّ ما؛ بحيث يكون هذا الحبّ أسمى من جميع الحياة بأسرها وقيّماً بحيث يستحقّ أن يجعل الإنسان حياته من أجله ويفديها في سبيله. وبالتأكيد لا يصل الكثير من الناس إلى هذه النقطة. فإنها تعبّر عن بلوغ روحي لدى الإنسان ولا يبلغ الكثير من الناس إلى هذا المستوى. إن أحد الأعمال المؤدّية إلى اطمئنان القلب وبلوغ الروح هو «الشكر». فإنّ شكرنا مدّةً سنحصل على سكينة واطمئنان لا يجدها المعقدون والحسّاد وأهل اللهو واللعب والهيجانات الكاذبة أبدا.

والعمل الآخر الّذي يطمئن قلب الإنسان ويعطيه فرصة التفكير في هدف الحياة هو «الصلاة». فإنّ اللّه وعبر فرض الصلاة علينا كأنّه يسحب الكابح اليدوي في حياتنا ويذيقنا السكينة ثلاث مرّات في اليوم، وذلك في سبيل أن يتسنّى لنا التفكير في أصل الحياة والهدف منها. لقد فرضت الصلاة من أجل أن تلفت نظرنا إلى الهدف السامي في الحياة وتفهّمنا سخافة انشغالاتنا الدنيوية وتحرضنا على التفكير في حقيقة أننا «طيور بستان الملكوت ولسنا لعالم التراب، وإنما قد سجنّا في قفص أبداننا في أيّام قليلة». إن أولي القلوب المطمئنة الذين يحظون بساعات السكينة والاطمئنان، فإنهم يفكرون بهدف الحياة، بينما أولئك الذين يفقدون هذا الاطمئنان ولا يفكرون بهدف الحياة، فإنّهم مشغولون بشؤون حياتهم وحسب ولا يطمحون إلّا برفع نواقص حياتهم. وحري بالذكر أن مشاكل هؤلاء أكثر من الفئة الأولى، وحياتهم أصعب غالبا. فقد قال الله سبحانه وتعالى: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرى فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً» [طه/١٢٤] فمن يصرف وقتا لذكر الله، يحلّ الله كثيرا من مشاكله. مهما كان شغلكم فبإمكانكم أن تتخذوا معاونا رائعا يشخّص احتياجاتكم ويعدّ مقدّمات عملكم. إنّ هذا المعاون الرائع هو ربّ العالمين! فإن كنتم مع الله، سيكون الله معاونكم وبدلا من أن تصبّ قدرة الله في إفشال أعمالكم وتثبيط عزائمكم، ستكون في مسار تعبيد الطريق لشؤونكم وأموركم. طبعا لا يعني ذلك أن من كان مع الله، فلا تواجهه مشكلة، سيواجه مشاكل لا محالة، ولكن هذه المشاكل، سوف لا تحطّم أعصابه ولا تربك سكينته، بل ستكون سببا في رشده وارتقائه. فإن أصبحت على وشك الانهيار بسبب ما تعانيه من مشاكل، فاعرف أنك قد أعرضت عن الله في بعض شؤون حياتك، فورّطك الله بهذه المصائب لعلك تنتبه وترجع إليه.

إن كان الهدف من خلق الإنسان «العبودية» فالهدف من تكوين الأسرة هو «العبودية» أيضا/ لا يطوّر عبودية الإنسان شيء مثل خدمة الأسرة!

كلّ يجب أن يرى هل قد أحرز الهدف من الحياة؟ هل عرف ما هو الهدف من تكوين الأسرة؟ فلابدّ للإنسان أن يصل إلى شيء من البلوغ الروحي حتى يصل إلى هذه النقطة. لما قال الله سبحانه وتعالى: (وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات/٥٦] فمعنى ذلك هو أن الهدف من جميع ما وفّره للإنسان من نعم هو العبوديّة. إذن فالهدف من اختيار الزوج وتكوين الأسرة هو عبادة الله أيضا.

وكذلك الهدف من إنجاب الأطفال وتربية الأولاد وكسب الجاه الاجتماعي هو العبودية أيضا. ولكل هذه الأعمال أجزاء وشؤون وظروف وهي من أجل عبادة الإنسان أيضا. فإذا تحببتم إلى زوجاتكم فلابدّ أن يكون ذلك من أجل تحقق هذه العبودية. فإذا اعتبرنا جميع شؤون حياتنا كأجزاء ومعدّات لعبادة الله، سنعرف عند ذلك أنه «لا يطوّر عبودية الإنسان شيء مثل خدمة الأسرة». فإنكم إذا جعلتم العبادة هدفا لتكوين الأسرة، لن تستطيعوا أن تجسّدوا عبادة الله عبر حسن الخلق في الرأفة في الشارع ومع الآخرين، كما لو فعلتم ذلك في داخل أسرتكم. لقد اشتهر على الألسن أن: «ليست العبادة سوى خدمة الخلق»، ولكن كان الأحرى أن يقال: «ليست العبادة سوى خدمة الأسرة». ترى أخلاق بعض الناس حسنة مع الآخرين، فيخدمون الغريب ويتعاملون معه بوجه بشوش، ولكنهم لا يتعاملون مع أمهاتهم وآبائهم وأزواجهم هكذا، فكأنهم أصبحوا تكراريّين لديهم! فإن هؤلاء أن لم يكونوا عطوفين مع أسرتهم، فلا قيمة لابتساماتهم وبشاشة وجههم مع الغير، ولا يستطيعون أن يخدعوا الله بهذه الأعمال. فمن لم يعطف على أقربائه، فعطفه بالغير كذب وخداع بالطبع.

إن بعض الناس يراعون الإناقة ويتزيّنون خارج البيت، ولكنهم لا يفعلون ذلك مع أزواجهم!/ لا يمكن جبران عارضة نقص الانتباه بتزيين النفس للآخرين

إن بعض الناس يراعون الإناقة ويتزيّنون خارج البيت، ولكنّهم لا يهتمّون بإناقتهم وشكلهم في البيت وأمام أزواجهم. فلابدّ أن نسألهم: «لماذا لستم أنيقين في البيت، مع أنكم تخرجون بظاهر أنيق خارج البيت؟!» ولا فرق في هذه القضية بين الرجال والنساء. فقد نقل عن الإمام الخميني(رض) أنه كان يكوي ملابسه المنزلية ويلبسها في البيت. وروي عن الإمام محمد الباقر(ع) أنه قال:«النِّسَاءُ يُحْبِبْنَ أَنْ يَرَيْنَ الرَّجُلَ فِي مِثْلِ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ أَنْ يَرَى فِيهِ النِّسَاءَ مِنَ الزِّينَةِ» [مكارم الأخلاق/ص٨٠] طبعا يختلف أسلوب تزيّن الرجل عن تزيّن المرأة في البيت. فعلى سبيل المثال درس بعض علماء النفس أن أول ما تنظر إليه المرأة في ظاهر زوجها، هو خط الكوي في ثيابه.

أحد أصحاب الإمام الباقر(ع) زاره في بيته، فرآه قد ارتدى لباسا أحمر غير متعارف. فلمّا عرف الإمام الباقر(ع) استغرابه، قال: إن زوجتي تحبّ أن ألبس هكذا. «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ ع وَ عَلَيْهِ مِلْحَفَةٌ حَمْرَاءُ شَدِيدَةُ الْحُمْرَةِ فَتَبَسَّمْتُ حِينَ دَخَلْتُ فَقَالَ كَأَنِّي أَعْلَمُ لِمَ ضَحِكْتَ، ضَحِكْتَ مِنْ هَذَا الثَّوْبِ الَّذِي هُوَ عَلَيَّ إِنَّ الثَّقَفِيَّةَ أَكْرَهَتْنِي عَلَيْهِ وَ أَنَا أُحِبُّهَا فَأَكْرَهَتْنِي عَلَى لُبْسِهَا» [الكافي/٦/٤٤٧] إن ضرورة تزيّن النساء لأزواجهن وعدم تزيّنهن في الشارع هو بحث مفصّل لا أريد أن أتطرق إليه. ولكن بعض الناس الذين يعانون من نقص الانتباه، فهم يتزيّنون ويأنقون عند خروجهم إلى الشارع وهم لا يدرون بعدم إمكان جبران نقص الانتباه عن هذا الطريق. فهم من قبيل من ركب سيارة ويدقّ بوق السيارة ليجلب انتباه الآخرين. فلو لم يكن هؤلاء يعانون نفسيّا من نقص الانتباه، لما احتاجوا إلى تزيين أنفسهم للآخرين. فلعلّ هؤلاء لم يتربّوا في أسرة صالحة، إذ من خصائص الأسرة الصالحة هي أنها تشبع أفرادها بالحبّ والحنان. فلو كانوا قد نشأوا في أسرة صالحة، لكانوا بغنى عن انتباه الآخرين ومحبّتهم، ولما شوّشوا أذهان الناس بمحاولة جلب أنظارهم واسترعاء انتباههم.

يجب على كلّ من الزوجين في الأسرة أن يروا ماذا أراد الله منهما؟/ لا يمكن لإثنين أن يتحابّا بشدّة إلا أن يكون كلاهما قد عشقا الله وأولياءه

إن اعتبرنا الهدف من تكوين الأسرة، عبادة الله، عند ذلك سنعرف أن في جميع لحظات حياتنا المشتركة، كانت تمتحن عبوديتنا في الواقع. إن كنّا عبادا لله واقعا، فلابدّ أن نرى في كلّ لحظة ماذا يريد الله منّا. يجب على كلّ من الزوجين في الأسرة أن يروا ماذا أراد الله منهما. فعلى سبيل المثال لقد أراد الله من المرأة أن تتزيّن لزوجها فقط، أمّا إن أرادت المرأة أن تغضّ النظر عن الله ولا تبال بإرادته، يضيق بها بيت زوجها فتتبرج للجميع. وفي المقابل إن اتسمت المرأة بالعبوديّة وأولت اهتماما بما يريده الله منها، سترى أن الله قد أراد منها أن لا تتزيّن إلا لزوجها. وكذلك إذا أراد الرجل أن يلتزم بما أمره الله، فعليه أن لا يغازل إلا زوجته، ولو كانت قد فقدت جاذبيتها ونضرتها بعد مضيّ السنين.

إن عـزم كلّ مـن الزوجـين في البيـت أن يمتثـلا أمـر اللـه، سـيتحابّان بدرجـة لم يصوّرهـا أي فيلـم لحـد الآن! «مُغِيـثٌ قَـالَ لِأَبِي عَبْـدِ اللَّـهِ ع وَ رَآهُ يَضْحَـكُ فِي بَيْتِـهِ جُعِلْـتُ فِـدَاكَ لَسْـتُ أَدْرِي بِأَيِّهِـمَا أَنَـا أَشَـدُّ سُرُوراً بِجُلُوسِـكَ فِي بَيْتِـي أَوْ بِضَحِـكِكَ؟ قَـالَ إِنَّـهُ هَـدَرَ الْحَـمَامُ الذَّكَـرُ عَـلَى الْأُنْثَـى فَقَـالَ أَنْـتِ سَـكَنِي وَ عِـرْسِي وَ الْجَالِـسُ عَـلَى الْفِـرَاشِ أَحَـبُّ إِلَيَّ مِنْـكِ فَضَحِكْـتُ مِـنْ قَوْلِـهِ» [مناقـب آل ابيطالـب ع/٤/٢١٧] لا يمكـن لاثنـين أن يتحابـا بشـدّة إلا أن يكـون كلاهـما قـد عشـقا شـخصا آخر، فتكـون قد زالـت أنانيّتهم بهـذا العشـق. فـإن فنـوا في هـذا الموجـود تـزل أنانيّتهـم بطبيعـة الحـال ويتسـنَّ لهـم التـوادد مـع بعض. ولا يمكـن لـذاك المعشـوق أن يكـون موجـودا غـير اللـه وأوليـاء اللـه. إذ لا يسـتحقّ العشـق غـير اللـه. فـإذا كان زوجـان فانيـين في «واحـد»، ينسـجمان ويتحابّـان بالطبّـع. أمـا باقـي أنـواع الحـبّ فهـي كـذب وخـداع. فعـلى سـبيل المثـال، العشـق الـذي يـروّج في الغـرب كـذب، إذ لـو كانـوا صادقـين حقّـا لعمّـت أجـواء الحـبّ والحنـان بـين أبنـاء أوروبّـا، لا أن نراهـم قد عايشـوا الـكلاب والقطط بـدلا من أبنـاء البشر! لمـاذا أبنـاء الغـرب الذيـن قرعـت أسـماع العـالم أغـاني حبّهـم، لم يثبتـوا في عشـقهم؟! فهـذا دليـل عـلى أنّ عشـقهم لم يكـن حقيقيّـا بـل كأن أحدهـم يقـول: «إني أحبـك مـن أجـلي، فـإن لم تكـوني مـن أجـلي فعسى أن لا تكـوني أبـدا!» ولذلـك سرعـان مـا يتحـوّل هـذا الحـبّ إلى نفـور. يعنـي كان ادعـاء الحبّ عـن أنانيّة، ولا تنسـجم الأنانيّـة مـع العشـق. لذلـك لا ينبغـي أن نكـذب عـلى بعـض ونخـدع أنفسـنا. فـما يدّعيـه الكثـير مـن الشـبّان والشـابّات بأنّنـا عشـيقين ليـس بصحيـح، إذ لم يدركوا معنى العشـق بعد. لا يسـتطيع أحـد في كل هـذا العـالم أن يسـخر قلوبنـا إلا اللـه ربّ العالمـين. ولذلـك يقـول: (مـا جَعَـلَ اللَّـهُ لِرَجُـلٍ مِـنْ قَلْبَيْـنِ فـى جَوْفِـهِ) [احـزاب/٤] يجـب أن تجعـل قلبـك وعـاء واحـدا، فأنـت إمـا تحـبّ اللـه وإمـا تحـبّ نفسـك، وإن كنـت تحـبّ نفسـك، فحتـى لـو أحببـت غـيرك، فقـد أحببتـه لنفسـك وكان حبّـك أنانيّـا.

إن كنت تحبّ الله، فستحبّ أهلك وأسرتك من أجل الله/ إن بعض الناس يربّون أولادهم حفاظا على سمعتهم ولا من أجل الله

إن كنت تحبّ الله، سوف تحبّ أسرتك حبّا للّه. الفيلم الغرامي الحقيقي هو أن يتحابّا زوجان لحبّهما لله. فعند ذلك لا يقف الحبّ والغرام بينهما عند حدّ. ويريد كلّ من هذين العاشقين، أن يعرض نفسه على الله لا على الآخرين. فمع الأسف قد أصبح اليوم هذا النوع من الحبّ بين الزوجين والذي ناجم من حبّهما لله مجهول. كما أن الكثير من الآباء والأمهات لا يربّون أولادهم من أجل الله، بل من أجل أغراض أخرى من قبيل منافسة الآخرين، أو يختارون صهرا لبنتهم بحيث يباهون به الأقرباء! فهم يضحّون بأطفالهم وأفلاذ أكبادهم في سبيل شهواتهم النفسانية. وفي الواقع كأنهم يدسّون طفلهم في التراب، مع أنهم يستهزئون بعرب الجاهلية الذين كانوا يفعلون ذلك! ترى بعض الناس يشكي من سوء تربية ولده وأنه قد شوّه سمعته بين الجيران والأقرباء. فلابدّ أن نقول له: «يبدو أنك كنت تربّي ولدك حفاظا على ماء وجهك، فالآن قد ذهب بماء وجهك ـ من حيث شاء أم أبى ـ لتعلم أنه لا ينبغي أن تربّي ولدك من أجل سمعتك وجاهك، بل يجب أن تربّيه من أجل اللّه». إن عاش الوالدان من أجل اللّه، وكلّ تحمّل نواقص الآخر من أجل الله، وربّوا ولدهم من أجل الله، فعند ذلك يتربّى هذا الطفل ـ في ما يرتبط بتربية والديه ـ تربية صالحة. كلٌّ في البيت يَعرِض نفسه على الله سبحانه، فإن أدرك امرء هذا المعنى، وخدم أسرته من أجل الله، سيحصل على نور يعمّ على باقي أفراد الأسرة. يقول الإمام الصادق(ع): «مَا مِنِ امْرَأَةٍ تَسْقِي زَوْجَهَا شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهَا مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ صِيَامِ نَهَارِهَا وَ قِيَامِ لَيْلِهَا وَ يَبْنِي اللَّهُ لَهَا بِكُلِّ شَرْبَةٍ تَسْقِي زَوْجَهَا مَدِينَةً فِي الْجَنَّةِ وَ غَفَرَ لَهَا سِتِّينَ خَطِيئَةً» [وسائل الشيعة/١٧٢/٢٠] فيا ترى من يرضى بالتخلّي عن هذا الأجر العظيم في مقابل عمل صغير؟!

فلتكن معاملتكم مع اللّه لا مع أزواجكم/ لا تخافوا ضياع حقوقكم في ما إذا أحسنتم الأخلاق والصحبة مع أزواجكم!

فلتكن معاملتكم مع الله لا مع أزواجكم، ولا تخافوا ضياع حقوقكم في ما إذا أحسنتم الأخلاق والصحبة مع أزواجكم، وأساء زوجكم في المقابل. لا يقل أحدكم: «إن أحسنت العشرة من أجل الله، بينما تفرعن زوجي وأضاع حقّي، فمن الذي يأخذ حقّي منه؟ فدعني أكن كالذئب المهاجم أهاجمه وآخذ حقي منه!» الجواب هو مهما كنت شرسا مع زوجك، فلا فائدة في ذلك بل سيتفاقم سوء خلقه. بينما إن أحسن الإنسان أخلاقه وسلوكه، سيدافع الله عنه؛ (إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذينَ آمَنُوا) [الحج/٣٨] لا يستطيع زوجكم أن يفرّ من الله، وأي محكمة جديرة بالدفاع عن حقكم أفضل من محكمة الله سبحانه؟ كوني زوجة صالحة واعرضي أخلاقك على الله، فإن لم يقدّرك زوجك وأساء إليك، فحتى لو استشهد في سبيل الله ودفنه رسول الله(ص) بيديه المباركتين، سيضغطه القبر! كما حصل لسعد الذي استشهد بين يدي رسول الله(ص) وباشر الرسول(ص) بدفنه «فَلَمَّا أَنْ سَوَّى التُّرْبَةَ عَلَيْهِ قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ يَا سَعْدُ هَنِيئاً لَكَ الْجَنَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص يَا أُمَّ سَعْدٍ مَهْ لَا تَجْزِمِي عَلَى رَبِّكِ فَإِنَّ سَعْداً قَدْ أَصَابَتْهُ ضَمَّةٌ ... إِنَّهُ كَانَ فِي خُلُقِهِ مَعَ أَهْلِهِ سُوءٌ» [علل الشرايع/٣١٠/١]

أتعلمون متى يتجسّد العشق الحقيقي بين الزوجين؟/ عندما يتوفّى الرجل، فمصيبته على زوجته أعظم من غيرها

أتعلمون متى يتجسّد العشق الحقيقي بين الزوجين؟ عندما يتوفّى الرجل، فمصيبته على زوجته أعظم من غيرها. ومثلا في ما إذا أخذ أب كبير السنّ بيد زوجته أمام أولاده ثمّ دمعت عيناه وقال: «أ تعلمون كم قد تعبت هاتان اليدان من أجلي، من دون أن يكون واجبا عليها، وكم قد طبخت لي هاتان اليدان طعاما طيّبا؟!» هكذا يتجسّد الحبّ ومثل هذا الحبّ يمدّ العالَمَ بحيوية ونضارة، وإلا فممارسات الحبّ والغرام التي تجري بين ولد وفتاة شابّين والتي هي مقتضى شهواتهم الغريزيّة في أيام الشباب هي أمر طبيعيّ لا يمدّ العالَم بشيء.

كان أحد العرفاء الكبار مريضا في المستشفى، وكان قد أيس الأطباء من علاجه. وإذا يفتح عينيه ويقول لولده علينا أن نذهب إلى البيت! فسأله عن السبب؟ قال: كان المفترض أن أموت الآن ولكن لم يرض قلب أمك بوفاتي، فتعرقل الأمر. فلابدّ أن أذهب إلى البيت وأحصّل رضاها. وفعلا ذهبوا إلى البيت وتحدّث مع زوجها عدّة ساعات لكي ترضى، ثمّ غادر الدنيا بكل سهولة. فلابدّ أن نجد العشق في مثل هذه المواقف. أتعلمون عندما يتوفّى رجل، على من تكون مصيبته أشدّ؟ على أمّه، أم على بنته، أم على أخته، أم على زوجته؟ قيل: إن مصيبته على زوجته أعظم. فساعد الله قلب الرباب بمصيبة الحسين(ع). أتعلمون من أسرع من مات حزنا على الحسين(ع) بعد مصائب كربلاء؟ إنها الرباب فقد ماتت حزنا قبل جميع النساء. كانت الرباب إحدى زوجات أبي عبد الله الحسين(ع) العارفات، واللتي قد كان أبو عبد الله الحسين(ع) يحبها بشكل خاص من أجل الله وبسبب معرفتها. وبالإضافة إلى ذلك لا تستحقّ كل أمّ أن يفدى ولدها الرضيع لإمام زمانه. وقد سبقتها الرباب أمٌّ أخرى حيث فدي جنينها وهي فاطمة الزهراء(س) اللتي ضحّت بولدها محسن في سبيل أمير المؤمنين(ع)...

ألا لعنة الله على القوم الظالمين